

انا اكره ان اكون منقادا وأكره ان اكون قائدا

ما ان ابتدأت اتعلم ألف باء التفكير والتأمل وأنا أسأل نفسي لماذا مجتمعنا مجتمعا ذئبيا القوي فيه بيتز الضعيف حتى يصل الابتزاز في كثير من الاحيان الى حدود الاغتصاب! ما ان يصل فرد من الافراد العاديين الى القبض على زمام السلطة او المال حتى تظهر النزعة الذئبية الافتراضية بأبهي حلها البشعة. ناظر الضيعة يمارس سلطته وكأنه فرعون صغير. ينتشي بخمرة أوامر الصيبانية وطعامه ليس أكثر من خبز وزيتون وأولاده مشردين لا مدرسة ولا عمل ورغم ذلك لا تفارق لفظة الأنا شفثيه كيف لا وهو محور هذا الوجود ونقطة دائرة بيكاره. معلم المدرسة يتعامل مع طلابه الصغار وكأنه ظل الله على الأرض اذا لم يحفظوا عن ظهر قلب كل كلمة او عبارة يتفوه بها فهم ناكري الجميل أو غاد زنادقة جهلة وأهلهم أشد منهم جهلا وزندقة. صاحب البوسطة يطلق بوق زموره في الصباح الباكر والويل والثبور لمن يتأخر دقيقة او دقيقتين فالسباب والشتم واتهام الاخرين بالتخلف والانحطاط. الراعي يعود مساء مع عزاته يلعن الطبيعية والناس والحظ والقدر وعلى زوجته ان تهب سريعا لتغسل قدميه بالماء الساخن وتحضر "تسكة العرق البلدي" ليشرب ويشرب ويصدر الأوامر ويلعن النساء المتعاسات ثم يدوخ وينام قبل ان يقدم لزوجيه المسكينة اللذة التي كانت تنتظرها طوال النهار. رجل الدين يتكلم من عل كنبى يوحى له من السماء ومن يتشكك بصحة اي حرف ينطق به فهو كافر مارق مهرطق يستحق النبذ الاجتماعي قبل ان يحترق في الآخرة بنار جهنم. في مجتمعنا على المرأة ان تلبس أحدث الأزياء وأن تتعلم كيف تكشف عن مفاتها لأصحاب المال والسلطة وتبرقع بالحشمة والفضيلة للاناس المفلسين. اذا كان زوار لبيت من التجار والمغتربين الموفقين في اعمالهم فعليها ان مثال الحداثة والانفتاح والفكر الليبرالي وان تزايد في التمدن بجرأة تصل الى حدود الوقاحة. وأن تجلس وهي تؤرجح رجليها بطريقة معينة وتحدث وهي تمط شفثيتها بطريقة معينة. أما اذا كان الزوار عاديين فعليها ان تبسمل وتحمدل وتتفوه بعبارات تدل على الايمان والورع. واذا جلست يجب ان تضع شالا فوق ركبتيها او ان تقدم الضيافة وتستأذن تاركة الضيوف مع زوجها فقط. اما الرجل فهو بين ظهراي المفلسين مثلا اعلى للمروءة والشهامة والعطاء. فالأحاديث كلها تدور حول وقفات العز لأن الحياة مواقف. وحول اباة النفس من عدم أكل أموال اليتامى والمساكين او مد اليد لا سمح الله الى ارزاق الناس او أعراضهم. الحديث بمجمله عن الانشغال الدائم بالواجبات الدينية فالورع ومخافة الله والتفاني في الفضيلة هي المحجة البيضاء وسدرة المنتهى. اما بين ظهراي الاغنياء والمتسلطين فالرجل يستلذ طعم العبودية والانقياد والخنوع والاستزلام. فهو يعتبر الخنوع تواضع والانقاد طاعة أولي الامر وهو واجب ديني وأدبي. والعبودية ليست الا الدليل القاطع على الايمان لأن الناس كلهم عبيد والله وحده يختار الأسياد لأسباب يعرفها وحده ولا يحق لأحد ان يتساءل او يعترض او ينتشكك. هذا الرجل على وقاره وعظمته التي يدعيها عليه ان يصادق خميع الناس الا اهل بيته وعليه ان يكون طو المعشر مع جميع الغرباء الا مع اقاربه. وعليه ان يتماجن مع الجميع الا مع زوجته. الزوجة كذلك لا يضيرها في شيء ان تكون عريضة جريئة مع عشيقها اما مع زوجها فدائما محتشمة حبية تخجل ان ترى نفسها عارية وتزداد خجلا اذا ما تعرى زوجها امامها. انه مجتمعنا الذئبي الذي ارتبطت به ذنبيته بالعمل المستمر والدؤوب لتجريد الانسان من عقله وارادته وحرية لصالح السلطات السياسية والدينية والمالية تلك الثلاثة اقانيم في اقنوم واحد. انه مثلث برمودا الداخل اليه مفقود والخارج عنه محروم. والادهى ان اقانيم

هذا الثالث تدعي الخلافات فيما بينها وتذر رماد الخداع في عيون السانجين لتسلبهم عقولهم وحررياتهم وبالطبع كراماتهم. فمن يصعب انقاده للأقطاع السياسي يدجنه الاقطاع المالي. ومن يستعصي على الاثنين فهناك الاقطاع الديني الذي يعرف كيف يستغل عقد الاحساس بالذنب عند الاناس المساكين وينمي هذه العقد حتى يظهر بمظهر المخلص المنفذ فينقاد له الحرون ويلين له المتصلب. ولكن اصحاب السلطة في هذا الشرق العتيق عرفوا كيف يأخذوا من الفلسفة البراغماتية ما يخدم مصالحهم ويكرس نفوذهم السرمدى. فالاقطاع السياسي تماشيا مع روح العصر تجلب بجلايبب الاقطاع المالي وغدا يزايد على الثوريين في ثورتهم والليبيراليين في ليبييراليتهم. والاقطاع الديني ظاهره ديني وباطنه مالي فالاقطاع امبراطوريات مالية قبل ان تكون ممتلكات دينية. اما المثقفون في هذا المجتمع الذئبي فأمامهم عدة خيارات احلاها مر كالعقم. فهم اما ان يستزلموا ويمارسوا دور الابواق الدعائية لأولي الامر في الضيع والزقازيق والحارات ووسائل الاعلام والمنابر الثقافية. او ان يعزلوا ويتصوفوا فيثير الاقوياء عليهم الجماهير ليصبحوا مادة للتندر والفكاهة ومثل اعلى للتافهين الفاشلين الذين لا يحتاج الى بضاعتهم احد. او ان يرحلوا الى اوروبا ليناضلوا من هناك اذا توفرت لهم الارادة الصلبة والقدرة على التحدي والمجابهة هذا اذا لم يلحق بهم اصحاب البترودولار والعسس الى اوروبا ويعودوا ليدجنوهم بوسائل اكثر حضارة وحادثة. اما اذا تمادى المثقف في ثورته الثقافية على الطواطم الاالصنام والفراغة فهو حتما عميل خائن لثرائه ودينيه وثقافته اليعربية المتشرفة بماض مصره ان تسحبه على الحاضر والمستقبل.

انها مجتمعاتنا الشرقية التي تعتبر ان اعلى مراحل الفضيلة هي في تقديس اوثنان الماضي وتأدية الفرائض الدينية البدنية متجاهلة ان الكذب هو اعلى درجات الرذائل وان الظلم هو ارقى درجات احتقار الله في ذاته وفي مخلوقاته. مجتمعاتنا تتباهى بالكذب والخداع فكل رجل يملك شخصية مزدوجة اي يمارس الكذب على نفسه اولا وعلى الآخرين ثانيا. فهو في البيت مع زوجته واولاده مثال المتدين الورع الوقور المحتشم الذي يتكلم من عل وكان كلامه وحي يوحى. وهو خارج البيت مثال الماجن المهترق المهرج صاحب النكات الخليعة والمغامرات السندبادية. أصدقاؤه رواد الحانات وصديقاته عاهرات الشوارع والمواخير. يريد اعهر النساء صديقة له وأشرف النساء زوجة له ولا يرى في ذلك اي تناقض. وهذا الرجل ظالم مستبد بموظفيه وعماله ومستخدميه فهم بالنسبة اليه كالظل لصاحبه مجرد ادوات انتاج او غلمان وجواري يستبيحهم بتعبيهم ويعرق جبينهم واذا اراد اكثر فبعرق ائدائهم ومؤخراتهم. ولا يحق لأحد ان يناقش او يحاسب لأن غضب السيد معناه التشرد في شوارع البطالة والضياع في ظل اقتصاد ريعي لا أثر للتنمية فيه ولا فرص عمل جديدة. وهذا الرجل نفسه هو امام اربابه عبد خنوع اذا ارادوه سمسارا فهو نعم السمسار. واذا ارادوه قوادا فهو نعم القواد. واذا ارادوه غلاما فهو يتباهى بغلمنته. في هذا المجتمع الذئب العقل الفردي بدعة وكل بدعة ضلال وكل ضلال في نار جهنم. هناك عقل واحد فقط هو العقل الجمعي الذي يصوغه السلطان الزمني والروحي متحدين متكافلين متضامين. فلا وجود للفرد الا كجسد فقط. وجسد برهن الاغتصاب. اما العقل فوجوده الفردي ممنوع لأن التفكير بدعة طالما كل شيء مكتوب في لوح محفوظ منذ البدء حتى يوم القيامة ولا جديد تحت وجه الشمس. اما اولئك الاجانب من اوروبيين واميريكيين وصينيين فالله يسخرهم بأفكارهم واختراعاتهم لكي يخدموا رفاهية رؤسائنا وأسيادنا. انهم خدم لسلطيننا في الدنيا والآخرة على حد سواء. وحتى لو اعطيوها مجد الدنيا فالدينا

دنية وفانية لا تستحق منا التفاتة. وهي قصيرة عمرها سنوات محدودة بينما الاخرة لا نهاية لها. وفيها لنا المن والسلوى وانهار الخمر والعسل واللبن والخور العين والغلمان المرء. فلندع لهم اذن الدنيا وما فيها من تطور وارتقاء وتجدد وحادثة وخلق وابداع فكل ذلك كلام فارغ لا يستحق منا التفاتة تذكر. الم نتعلم الدرس من الامام الغزالي صاحب احياء علوم الدين الذي انفق عشرات السنوات ليعلمنا اصول الفرائض وهو متصوف متصومع في دمشق يوم كان الصليبيون يحتلون مدننا ويقتلون رجالنا واطفالنا ويغتصبون نساءنا وارضنا وهو لم يكلف نفسه عناء الالتفات الى تلك الترهات والسخافات والظواهر التافهة الدنيوية ليأتي على ذكرها ولو بكلمة واحدة. ناهيك بابن عربي صاحب الفتوحات المكية في عالم التصوف ومن لا يزال الناس حتى يومنا هذا يتبركون بزيارة قبره في دمشق وكيف عاصر الحروب الصليبية ولم يكلف نفسه التفاتة لما يجري في القدس وعكا وطرابلس وبيروت من قتل واغتصاب وتشريد ومصادرة اوطان بكاملها. ولكنه كان يتفنن في تصوير قصور الجنة المبنية من الزمرد والياقوت والذهب وأسرة غرف نومها التي في كل غرفة منها سبعين سريرا وعلى كل سرير سبعين حورية من الخود العين وسبعين غلاما من المرء الذي تحاكي بشراتهم بنعومتها المخمل الدافئ. وكل ذلك يجري بدافع الورع والتقوى والانجذاب الكامل الى السماء والانسلاخ الكامل عن هذه الدنيا الدنية التي لا يتفاعل مع واقعها الديناميكي الا الاذنياء مثلها. انه المجتمع الذنبي الذي صادر عقول الناس منذ الاف السنين. فالتعاليم لا يفرزها الواقع وحركة الصراع بين الافراد والطبقات ووسائل وقوى الانتاج. ولكن تهبط من السماء بشكل اوامر ونواهي غير قابلة للحوار او النقاش كي لا نقول الاعتراض. في الغرب اليوناني وقبل الميلاد بمئات السنوات كان الفكر يقدم حوارا بين اشخاص والفكرة تولد من تلاقي العقول بالجدل والنقاش. تولد من ذلك الحراك الاجتماعي الاقتصادي السياسي الذي يفتش عن الحرية على صعيد الفرد والعدالة على صعيد المجتمع وعن الآليات العملائية التي تجسد ذلك واقعا على الارض. اما في الشرق فالانسان ابن القدر يعيش فقيرا اميا لأن قدره مكتوب قبل ان يولد بأن يكون فقيرا اميا والاعتراض او الحق بالتغيير يعتبر تمردا على ارادة السماء. مكتوب لهذا الشرقي في اللوح المحفوظ ان يتزوج فلانة قبل ان يولد وتولد وان ينجب كذا اطفال قبل ان يتزوج ولذلك لا اعتراض ولا مسؤولية. حتى شعراء الغزل اعتبروا ان الامر للأمر يقدر كما قال عمر بن ابي ربيعة فكيف اذن بالساسة والخليفة خليفة الله وليس خليفة مواطنيه. ولذلك هو مسؤول فقط امام الله وليس امام مواطنيه. اما المرجعيات الدينية فهي معصومة عن الخطأ سواء اعترف علنا بعصمتها ام لم يعترف فعلى ارض الواقع هي معصومة. وسبب عصمتها انها تشد ازر المرجعية السياسية المالية ان لم تكن هي نفسها المرجعية السياسية المالية. عندها تتحد السماء بالارض وتلغى الازدواجية بين الفوق والتحت وبين جنة عدن وجنة الحشاشين في قلعة الموت. او بين من يحشش بالأفيون والكوكايين وبين من يحشش بخيالاته واوهامه وتداعيات الطاقة الشبقية في لا وعيه التي سماها فرويد الليبدو.

كمال يوسف سري الدين